تطور الفن المعماري والإسلامي

د. محمد حسان السراج

العمارة الإسلامية: هي الخصائص البنائية التي استعملها المسلمون لتكون هُويَّةً لهم، وقد نشأت تلك العمارة بفضل المسلمين؛ وذلك في المناطق التي وصلَها كـ(شِبه جزيرة العرب والعراق ومصر وبلاد الشام والمغرب العربي وتركيا وإيران وخراسان وبلاد ما وراء النهر والسند)، بالإضافة إلى المناطق التي حكمها لِمُدَدٍ طويلة مِثل الأندلس – إسبانية حاليّا – والهند)، وتأثَّرت خصائصُ العمارة الإسلامية وصفاتها بشكلٍ كبير بالدين الإسلامي والنهضة العلمية التي تبعتْه، وتختلف من منطقةٍ لأُخرى تبعاً للمناخ البيئيِّ وللإرث المعماري والحضاري السابق في المنطقة؛ حيث ينتشر الصحن المفتوح في (الشام والعراق والجزيرة العربية) بينما اختفى في تركيا نتيجة للجوِّ البارد وفي اليمن؛ بسبب الإرث المعماري، وكذلك نرى تطوُّرَ (الشكل والوظيفة) عبرَ الزمن، وبتغيُّر الظروف (السياسية والمعيشية والثقافية) للسكان.

وبرزت العمارةُ الإسلامية باعتبارها فنَّاً مُتميِّزاً له طابَعُه الذي يُعبِّرُ عن خُصوصيَّته؛ فهو ذاك الفنّ الذي يبعث في النفس (هدوءً وسَكينة) فترتاح العَين لرؤيته، ويأخذ النفْسَ بعيداً لتسبحَ في الأجواء الروحية لارتباطه بالعقيدة الإسلامية السمحة.

"فلقد فتح المسلمون ممالكَ شاسعة، وانضوت تحت راية الإسلام شعوبٌ متنوِّعة عُرِفت بالعراقة في المعمار؛ مِثل: (الفُرس والرومان والآشوريين والمصريين..)؛ ولكنَّ المِعمار في تلك البلاد كان يقوم على عقائِدهم الدينية، ويتمثَّلُ في التماثيل والصُّوَرِ والمحاريب والأديرة، فكان لا بُدَّ للمسلمينَ من فنٍّ معماريّ خاصٍّ بهم يختلف في (جوهرِه ومظهره وأهدافه) عن المِعمار السابق.

وهكذا لم يمضِ القرنُ الأوَّل للهجرة حتى كان المسلمون قد شيَّدوا (الجوامعَ الشاهقة والقصور الفاخرة)، وبنَوا البيمارستانات (المستشفيات) الضخمة والحمَّامات والمطاعم الشعبية والاستراحات، وبنَوا القِلاعَ العسكرية والحصون والرباطات والأسوار حول المدن، وبنَوا القناطر والخزانات والسدود للرّيّ، وبنوا المراصدَ والجامعات العلمية، كلُّ ذلك بأسلوبِ الفن المعماريّ الإسلامي المتميِّز، وإذا كان الكثيرُ من تلك المباني الإسلامية قد اندثرَ بفعلِ (الزمن أو الحروب الصليبية) فإنَّ القليل المتبقِّي يدلُّ على ذلك الماضي التليد".

وإنه إذا ما أردنا عرْضَاً لكلِّ ذلك، وأردنا بيان الصورة الحضارية الرائعة لفنِّ العمارة الإسلامي فإنّ هناك من العناوين ما يلي:

العمارةُ قَبْلَ الإسلامِ:

تعدَّدتْ أشكالُ العمارة في الحضارات قبل الإسلام وتنوَّعت، وإنْ كانت العمارة الدينية هي (القالَبَ والمحورَ) الذي التفّت حولَه كلُّ هذه الحضاراتِ وصبّت فيه، وكان ذلك على النحْو التالي:

١– عند قدماء المصريين: كان لتعدُّدِ المعبودات والآلهة، والإيمان بالبعث في العقيدة المصرية القديمة أكبر الأثر في ازدهار العمارة الدينية، التي تمثَّلت في بناء (المعابد والمقابر والأهرامات)، والتي لا تزال شاهدةً على المدى الهائل الذي توصَّلوا إليه في (العلوم الهندسية والمقدرة الفنِّيَّة العالية)، وإن لم تصل إلينا من العمارة الدنيوية للمصريين القدماء؛ إلاّ أطلال فإنّ (معابدَهم ومقابرهم) كفيلةٌ بالشهادة على براعتهم منقطعةُ النظير في فن العمارة.

٢– العمارة اليونانية: يُعتبَر بناء المعبد وتصميمه من أهمِّ النماذج المميِّزة للعمارة اليونانية في الفن القديم؛ والتي يُمكِنُ من خلالها دراسته؛ فقد شيَّد اليونانيون القدماء تماثيلَ كبيرةَ الحجْم لآلهتهم داخل حُجراتٍ، وأقاموا الطُّقوسَ الدينية حول تلك الحُجرات ممّا كان طِرازاً خاصّاً في إقامة المعابد، وقد كان للتقدُّم الفنِّيِّ السبب في إقامة المسارح، والتي كانت تُنحَت في سُفوحِ المرتفَعات، وقد تميَّزت العمارةُ اليونانية أيضا بالأعمدة وتعدُّد طُرُزِها.

٣– العمارة الرومانية: لم يكن المعبدُ وحدَه هو أهمَّ المظاهرِ الحضارية عند الرومان مِثلما كان في حضاراتٍ أُخرى؛ حيث وجد عندهم ثورة في أساليب البناء بعدما تمكَّنوا من استخدامِ التشكيلات المعمارية المختلفة؛ مِثل: (القوس – القبو المتقاطع – القُبَّة – الخرسانة)، وبالرغم من ذلك فهُم لم يستغنوا عن التشكيلاتِ القديمة مِثل الأعمدة اليونانية؛ بل وأضافوا إليها طُرُزاً أُخرى جديدة.

وبصفةٍ عامَّة؛ فقد كانت العمارةُ في الحضارات السابقة على الإسلام مقتصرةً – في الأغلبِ كما رأينا على (العمارة الدينية)–مُتمثِّلةً في بناء المعابد وتشيد الكنائس والكاتدرائيات، وصناعة التماثيل الكبيرة التي يعبدونها، وبناء المقابر للموتى وزخرفتها وتزيينها؛ إيماناً منهُم بالبعث بعد الموت، بخلافِ ما ندرَ من بناء الصروح والأبراج.

لا نكون مُبتدعينَ إذا قُلنا بـ:أنّ الحضارةَ بساطٌ نسجتْه وتنسجُه أيدي أُمم كثيرة؛ إذ أنها مُتواصِلةُ العطاء، وإنّ قيمة كلِّ أُمَّةٍ في ميزانها يساوي ما قدَّمته مطروحاً منه ما أخذتْه من الحضارات التي سبقَتْها، وإذا لم ينكر عاقلٌ أنّ

الحضارة العربية الإسلامية أخذت من حضاراتٍ سبقتْها، فإنه – أيضاً – لا يُنكِرُ أنها واصلت العطاء، ووشّت بساطَ الحضارة الإنسانية بكل ما هو راقٍ وجميل.

وفي هذا المضمار فإنه إذا كان المسلمون قد أقاموا صرحَهم المعماري بالاعتماد في البدايات على (المهندِسين والبنَّائين والصُّنَّاع الإغريق والبيزنطيين والفرس والقِبط) وغيرهم، فإنهم قد استطاعوا بعد ذلك أن يُقدِّموا للبشرية (فنّاً متفرِّداً أصيلاً ينطق ببراعتهم المتميزة وعبقريتهم الفريدة)، وفي العناصر الآتية تتَّضِح معالمُ هذا الفنِّ عِندَهُم:

موادُّ البِناء:

استعمل المعماريون المسلمون في مبانيهم كلَّ أنواع مواد البناء؛ كـ(الحجارة والطُّوب المحروق والرُّخام والخزف)، واستعملُوا (الخشب والحديد والنحاس)، وكانت الخلطةُ اللاصقة من الجبْس، أمّا الجيرُ فكان يستعمل في المباني التي تحتاجُ إلى مقاومة الماء، كـ(الأسقُف والقنوات والمصارف)، وكذلك في لصق الرخام.

وكانوا يستعملون (خلطةً من الجبْس والجير في صناعة الطوب المحروق)، ويختلف عمقُ الأساسِ في الأرض حسب المبنى؛ ففي بعض المباني الضخمة كانوا يَصِلُون إلى عُمْقِ عشرة أو أَحَدَ عَشَرَ متراً تحت مستوى سطح الأرض، وكانوا يستعملون أنواعاً من الحجارة الصُّلبَة كـ(الجرانيت أو البازلت) في الأساس.

وقد استفاد المعماريون من شتَّى العلوم والمعارف المعروفة في عصرهم وطبَّقُوها في مبانيهم، ومِن أهمِّ هذه العلوم (عِلم الحِيَل –الميكانيكا– وعِلم الكيمياء)، وعلوم الطبيعة؛ مِثل: (الصوت والضوء والتهوية).

وقد ابتكروا أنواعاً من الآلات الميكانيكية لرفْع الثِّقل الكبير بالجهد اليسير أو لجَرِّه، مِنها أنواعٌ من الكران، وآلاتٍ مِثل (المِكحال والبيرم والمنخل والسفين واللولب والقرطسون)، وكانت الحجارةُ الكبيرة ترفع إلى أعلى المبنى بحبالٍ معلَّقة على مجموعة من البكراتِ؛ حيث يجرُّها ثورٌ واحد فيرفعَها بسهولةٍ إلى أعلى.

كذلك استفاد المعماريون من عِلم الكيمياء الذي تفوَّق فيه المسلمون وطوَّرُوه، فصنَعُوا أنواعاً من (الدهانات والأصباغ) التي تتميَّز بـ(الثبات والبريق)، ومن المعروف أنّ المسلمين أوَّل مَن استعمل الزُّجاج الكريستال الذي ابتكره العالِمُ الأندلسي "عبّاس بن فرناس" رحمه الله تعالى سَنة ٨٨٧م، كما استعملوا في النوافذ الزجاج الملوَّن والمعشَّق في أشكالٍ هندسية.

المساجدُ:

المساجدُ أوَّلُ شيءٍ بناه المسلمون من العمارة؛ فقد بنوا المساجدَ قبل أن يبنُوا (القصور أو القلاع أو المدارس)، ومِن هُنا كان المسجدُ الدعامةَ الأولى لنشأة فن العمارة الإسلامية، و(رسالةُ المسجد في الإسلام لا تقتصر على الصلاة والعبادة) فحسب؛ فمسجد الرسول صلَّى اللهُ عليه وسلم –رغم بساطة البناء– كان بمثابة مدرسةٍ للعلم والتربية وبرلمان للأُمَّة تُعقَدُ فيه الانتخابات (البَيعةُ) للخليفة، وتُدارُ فيه الاجتماعاتُ (السياسية والعسكرية)، وكان فيه – أيضاً– عيادةٌ للتمريض هي (خيمةٌ رفيدة)، وفي ساحته كان نساءُ الصحابة يتركْنَ أطفالهنَّ في أمانٍ بعدَ الصلاة ريثما يقضين حاجتهُنَّ من الأسواق، فكان أيضاً دارَ حضانةٍ، وكان الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُطلقُ على هؤلاء الأطفال "حَمامَ المسجد".

وقد بَنى المسلمون جوامعَ ضخمة بالأهداف نفسها، تشمل مسجداً مُستقِلاً للصلاة، ويُلحَقُ به (المدرسةُ أو الجامعة)، وأيضا المستشفى ومكاتب الإدارة، ومِن ذلك جامع القيروان سَنة ٦٧٠م وجامع الزيتونة سنة ٧٣٤م وجامع الأزهر ٩٧٢م.

وتصميمُ المسجد عبارةٌ عن (ساحةٍ كبيرة فيها منبرٌ خشبيّ للخُطبة)، ثمَّ أُدخِلَ (المحرابُ المجوَّفُ) للدّلالة على اتجاه القِبلة، ثمَّ ظهرت (الإيواناتُ) وهي أروقةٌ تحيط بصحنِ المسجد ولها أقواسٌ مُقامة على أعمدةٍ، ومُلحَقٌ بالمسجد غرفةٌ للإمام ومكتبة، وعادةً ما يكون للمسجدِ ساحةٌ داخلية مكشوفة بها نافورةٌ لتلطيف الهواء وميضأة للوضوء، هذا علاوة على (القِباب والمآذن).

ويُعتبَرُ المسجدُ الأموي في دمشقَ سَنة ٧١٠م أوَّل نجاحٍ معماري في الإسلام بناهُ الخليفةُ "الوليد بن عبد الملك"؛ فقد كان بناءً جديداً في تصميمه، له طابَعه الخاصُّ وشخصيَّتُه المستقلَّة عن المِعمار في الحضارات السابقة للإسلام.

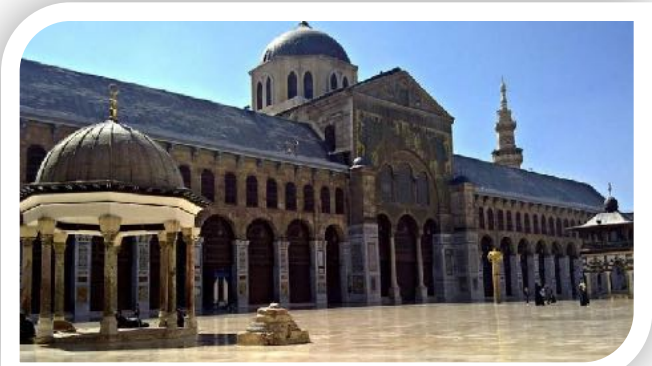

وفي أنحاء العالم اليوم الكثيرُ من المساجد الأثرية الشهيرة التي تنوَّعت؛ فهُناك (المساجدُ الأموية في الشام)، و(العبَّاسية في العراق)، و(الأندلسية في الأندلس)، و(الفاطمية في الشمالِ الإفريقي ومصر)، وهُناك المغولية والصَّفوية في إيران)، ثم هناك مساجِد الهِند، و(المساجد العُثمانية في تركيّا).

وهذا الاختلافُ في المظهر يزيد العمارةَ الإسلامية (ثراءً وعُمقًا)؛ ولكنَّه لا يشمل اختلافاً في الجوهر، وقد راعى المعماريون في بناء المساجد الفخمة مسألةَ الصوتِ؛ لتوصيل الخُطبة إلى آلاف المصلِّين والضوء والتدفئة والتبريد كلُّ ذلك بـ(الوسائلِ الطبيعية).

المآذن:

تُعتبَرُ المآذنُ من أهمِّ معالم المدينة الإسلامية؛ فهي تبدو وكأنّها (أذرعٌ ممتدَّة بالدُّعاء والضَّراعة نحو السماء)، ويُتوِّجُ كلَّ مئذنةٍ في أعلاها (قُبَّةٌ لها تاجٌ وفوقَها هلالٌ كبير)، ويحيط بوسطِها عددٌ من الشُّرفاتِ الدائرية لكلٍّ منها نوافذُ يُطِلُّ منها المؤذِّنُ.

وبعضُ العواصم الإسلامية كـ(القاهرة ودمشق واسطنبول) تُسمَّى ذات الألف مِئذنة، وترتفع المآذنُ في الآستانة إلى أكثر من سبعين متراً فوق المسجد، وتختلف المآذنُ في (أشكالها وأنواعها) حسبَ العصور والبلدان؛ فمنها (المربَّعُ والمثمَّن والدائري)، وكانت المآذنُ الأولى شبيهةً بالمنارات الرومانية، وعندما أراد المعماريون المسلمون بناءَ مآذنَ أكثرَ ارتفاعاً ابتكروا (المئذنةَ المتحوِّرة)، التي تبدأ في القاعدةِ بأدوارٍ مربَّعة ثم تعلُوها ، أدوارٌ مثمَّنة، ومن ثمَّ يعلو ذلك الأسطوانة الدائرية.

ولا يتوقَّفُ ثباتُ المئذنةِ العالية على تطوُّرِ الأدوار وتَدرُّجِها في الصِّغَر فحسب؛ ولكن –أيضاً– على استعمال الحلزوني الذي يربطُ قلبَ المئذنة بجسمِها الخارجي؛ وبذلك تبدو المئذنةُ وكأنها (شكلٌ حلزونيٌّ طويل مجوَّف ثابتُ الأركان) رغمَ طوله.

ولا تقتصر وظيفةُ المئذنةِ على النداء للصلاة؛ فكثيرٌ من المآذن كانت تُبنى كـ(منارة في البحر أو البر)؛ ولو لم يكن تحتها مسجدٌ، ومن أهمِّ وظائفها استعمالها كملاقف للهواء لتبريد الساحات السُّفلية تحتها، وبعضُ المساجد يشتملُ على مئذنتَين، وبعضها كـ(المساجد التركية) يحتوي على أربعةِ مآذن.

وتزدان المئذنةُ بزخارفَ إسلاميةٍ جذَّابة تُزيِّنُها الآياتُ القرآنية، كما أنّ بعضها كـ(المآذنِ الفارسية) يُحلَّى بالزليخ (القيشاني) الذي يبرقُ تحت أشعَّة الشمس.

وهناك مآذنُ ذاتُ شُهرةٍ خاصَّة؛ لانفرادها في التصميم المعماريّ، من ذلك "مئذنةُ ابن طولون" ذات السُّلَّم الحلزوني الخارجي، وقد بُنيت على طرازِ مئذنة (سُرَّ مَنْ رَأَى)، ومئذنةُ جامع الناصرية ذات الشُّعبتَين، و"مئذنةُ جامع ابن سِنان" في دمشق المكسيَّة بالزُّخرف الزنجاري، و"المئذنة المتحرِّكة" في أصفهان، وهي عبارةٌ عن كُتلةٍ حجرية واحدة مجوَّفة من الداخل، ويُمكِنُ لِمَن يصعد فيها أن يهزَّها في كلِّ اتجاه دون أن تسقطَ به.. Ball and Socket.

وهي مئذنةٌ متحرِّكة تُربَط من أسفلِها بمئذنةٍ أُخرى، فإذا ما حُرِّكَت الأُولى تحرّكَت الثانيةُ، وهكذا وَجدَ المعماريون المسلمون في المآذن فُرصةً للإبداع الفنِّيّ الذي يُعبِّرونَ من خلاله عن مشاعرهم نحو عظمةِ الخالق وإبداعه في خَلقِه.